السرير الحديدي

قصة

بقلم علي بدور

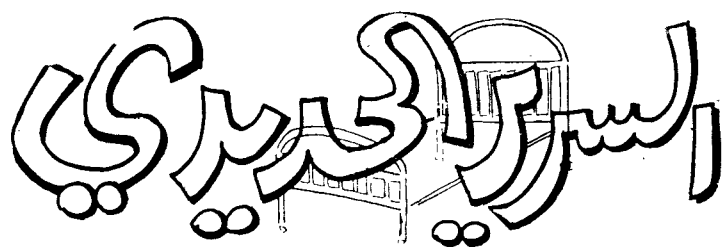

في غرفته سرير واحد . وهي لا تكتمل الا بسريرين ، حيث تستطيع والدته ان تنام على سرير حديدي ما دامت لا تريد ان تبادلـه الارض بسريره ، دون ان تضطرها الظروف لان تضع تحت الفراش مخدات فتقيها رطوبة الارض الوافدة مع الشتاء .

هذا هو الشهر الثالث يمر . وهو لا يزال يعلل نفسه بشراء سرير حديدي ، كان يريد ان يحدث بائع الاسرة ليبيعه احدها بالتقسيط ، ما دام لا يستطيع ان يدفع ربع راتبه في ثمن سرير .. بينما الافواه تصرخ من حوله .. واجرة البيت .. بالاضافة الى النثريات التي لا بد منها : باكيت دخان .. واجرة باص .. وصبغة حذاء .. وقص شعر في الشهر مرتين ، عدا المصاريف الصغيرة التي قد لا يحصرها عد . ولكنه حتى الان لم يهتد الى بائع الاسرة ، وقد لا يريد ان يهتدي اليه لكونه يطمح في ان يدفع قيمة السرير كاملة حتى اذا نام عليه ، لم يضع في حسباتـه ان ثلاثة ارباع هذا السرير الحقير الذي يوشك ان يعلوه الصدأ ، انما هو في ملكية انسان اخر ، يستطيع في كل لحظة ان يسحبه من تحتـه اذا توقف عن الدفـع !!

المجتمـع .. وما دخل المجتمع في هذا السرير ؟ كان يسأل نفسـه مرارا :

ـ اذا كان سرير حديدي قد شغلني هذه الاشهر الثلاثة فلم استطع تأمينه فما بالي بالآخرين اولئك الذين يشكون عللا عديدة ... وما يقول من نقص غذاؤه او اهتـرى كساؤه ، فغطى يأس الحياة المضنى عينيه !

ان في المجتمع نواقـص كثيرة ، قد يأتي هـذا السرير ـ في ظنـه ـ تاجا لها . وقد يأتي من القاعدة .. المهم ليس في هذا كله . ان المشكلة اولا وآخرا في جيبه الذي لا يفرغ حتى يمتلىء براتبه الذي ينضب بسرعة زائدة ، وهكذا . انه لعام خلا لم يكن يشعر بوطأة هموم الحياة . كان هناك من يحل عنه بعض أثقالها ، ولعل المشاركة في حمل ميت تنسي عظم المصيبة ، ولكن الانفراد بحل المشاكل يكاد يجعل الافراح والمسرات صعبة المنال على الفؤاد الوحيد .

ذهب أخوه الى خدمة العلم . وكمن نام وهو يشعر انه يتمتع بدفء الفراش احس وهو في بحر انه وحيد الا من فسحة الامل . اصبح اليوم مضطرا لان يحمل من السوق سلة ممتلئة بالخضار والخبز والفواكه واللحوم على ضآلة ما يحمل . كان يخجل كثيرا من حمل هذه السلة ، ولكنها اليوم عنوانه بين الباعـة ، وهو بذلك اخذ يستشعر وقع الحيـاة اليومية التي يحياها اللايين في مشرق الارض ومغربها ، أولئك الذين تمتلىء رؤوسهم بالمعرفة وقلوبهم بحرارة الحياة ، ويضطرون لأن يخوضوا معركة الحياة يوما فيوما ؛ ليسجلوا انتصارهم على الفاقة والحرمـان ، واحتقار الانسان العامل بصمت وبشرف وكبرياء لا حدود لتألقها .

كان دأبه قبل عام اتهام أخيه بأنه يبذر راتبه المناسب في طرق لا يعلم كيف كانت تنهش المال كالفئران بأسنانها اللؤلؤية . ولكنه اليوم يشعر ان الاموال مهما تكاثرت فانها لا بد من ان تنصرف كما تنصرف مياه المقهى في بالوعتها الكبيرة ، حيث تمتزج حثالة الشاي بالقهوة ، ومياه الصابون في حلق هذه الاسطورة التي لا ترتوي ابدا . اما اليوم فهو يشعر بالندم لا لشيء الا لأنه كان يتعجل في لوم أخيه ويسرف في لومه كثيرا . انه اليوم بالذات وفي الايام الاخرى كذلك لن ينسى ان الحياة اشبه بالغرفة التي أحيطت بالنوافذ .. ولكن اشعة الشمس لا تدخلها الا جهة فجهة .. وكذلك حاجة الانسان المتوسط للمادة في مجتمعه ، هذه الحياة المتشعبة بحاجاتها الاربع .. تريد اربعة اضعاف الدخل لسدادها ، وراتبه قـد يسد الحاجة للغذاء وحده او الكساء وحده او التسليـة وحدها ، او الادخار وحده ، اما ان يستعمل ما يكفي لحاجة واحدة في سداد الحاجة الاخرى ، بله الحاجات الاخر ، فمعنى ذلك انه لن يشبع كفاية .. ولن يكتسي .. ولن يتمتع بمباهج الحياة ، ولا بنعمة الادخار للغد المجهول .

في كل ليلة تتجسد همومه ومتاعبه وبؤسه الذي قد يدوم ، في هذا الفراغ الذي يمكن ان يملأه سرير حديدي ثمنه خمسون ليرة ، هـذه هي القضية . ان هذا الفراغ يعكس كل تعاسته كانسـان .. وكل آماله كمخلوق يعيش هذا العمر ، وهو يأمل ان تقبل الايام بما يختلف عمـا اعتادت ان تغرب عليه . ان السرير وحده لازمة لا بد منها في كـل حديث ... وكل حاجة ... وكل ذكرى .. وكل نقطة التقاء بين عنصرين من عناصر الفشل والنجاح ، في هذه الحياة التي يحياها ، وقد تجردت حتى من سرير حديـدي متواضع يتيح له ، او لامه النوم براحة ، بعيدا عـن الرطوبة الوافدة مع كل شتاء.

انه يستطيع لو اراد ان يوفر هذا المبلغ ليشتري به هذا السرير ، ولكنه يعتقد ان هذا التوفير لن يحل القضية قد لا يظهر خروقا مـن جهة ثانية ، وان كان يشك في ذلك ، ولكن الذي يستطيع ان يؤكـده ببسـاطة ، هو ان هذا السرير اصبح متكأ يلقي عليه كل همومه ... واتعابه .. في هذه الحياة .. على هذا السرير الخيالي ترقد في الليل بعيدا عنه ، هموم قلبه من الحب ، والود ، واللطف الذي ند عن الوصف .. وعليه ـ على هذا السرير بالذات ـ ترقد جميع الديون التي عليـه ، لصاحب الدار ، وللخياط وللاصدقاء ، ولبائع الساعات .. وعليه ترقد كل أحلامه في سفرة سعيدة الى الخارج ، حيث يطوف الدنيا ، ويعرف البشر ويزداد بالحياة بصرا ومعرفة ودقة رأي سديد !!

وعلى هذا السرير أيضا تستلقي كل الصور التعسة عن واقعه التعس الذى لولا هذا السرير البعيد ولولا مشكلة ثمنه ، لنام وهمومه في قلبه ، ومتاعبه من رأسه ، وآماله طريحة جريحة عند قدميه ، لا تدفعه الى الامام ولا تجذبه عن يمين او شمال .. انه بذلك على التحقيق ، سوف يموت مكفنا بحلمه ، مشدودا بأمله ، محمولا على سرير حديدي حقيقي الا انه الآن والسرير لم يدخل غرفته بعد ، يستطيع ان يعتقد ولو من بـاب الاطمئنان فحسب انه ما من مشكلة ـ ومشاكله اضحت معروفة لديه ـ تفوق هذا السرير أهمية .. هذا السرير الذي يعتقد انه هام اكثر من جميع همومه الصغيرة او الكبيرة . فهو لا يستطيع ان يحل هذه المشكلة بمجرد الحصول على خمسين ليرة . هناك هذا السرير القديم ماذا يصنع

به ؟! ان صديقه فاضل باع سريره القديم عندما اراد شراء سرير جديد . فاشترى سريرين من لون واحد وحجم واحد ، وجدة واحدة . ان صديقه يعتقد ان وجود سريرين مختلفين في كل شيء .. في غرفة واحدة ، انما ينافي ذوق المجتمع ... وهو بدوره مقتنع بذلك ولو على كره منه .

كان يعتقد ان مجرد الحصول على المبلغ اللازم يكفي لأن يجلب السرير الحديدي الناقص . فيكون في غرفته سريران كلاهما من حديد . ولو اختلف فيهما اللون وتفاوت العهد ، ولكنه يحيط بالمشكلة الآن احاطة تامة . انه ليس وحده الذي قد ينام على هذا السرير أو أمه . هناك أناس آخرون يجب ان يشاركوه النظر والراحة والانتقاء . المجتمع بالمرصاد له . هو لايستطيع ان يضع في غرفته سريرا آخر وكفى . بل يجب ان يكون السريران من لون واحد ، وشكل واحد ، وجدة واحدة ، والا اتهمه الناس بقلة الذوق ، واخرجوه من قائمة الذين يراعون تقاليد المجتمع ويحرصون على اداء متطلبات هذه الحياة الاجتماعية بصدر أرحب اكثر رحابة من عرض السموات .. والارض !!

فكر أكثر من مرة ، ماذا لو فعل مثل صديقه فاضل الذي باع سريره الوحيد ثم اشترى سريرين جديدين. ما دام يحرص على ان يظل حيا يقظا. ولكنه استدرك ان صديقه فاضل قد ادخر بعض المال ، فلما اراد احياء ذوق المجتمع تصرف بسهولة . باع السرير .. ثم اشترى سريرين آخرين . اما هو فكيف يتصرف . اذا باع سريره ، فهل يضمن ان لايعثر ثمنه في ثمن السجائر ..وحفلات السينما .. وقد يرفه عن نفسه في سهرة حتى الفجر. كيف يسمح لنفسه انيفكر على نحو ما فعل صديقه؟ انه امضى اكثر من ثلاثة أشهر وهو يعد العدة لشراء سرير . حتى بائع الاسرة لم يحاول ان يحدثه .. ان يشرح له وضعه .. ان يستعطفه . انه يريد ان يدفع ثمن السرير كاملا ، فيستريح من عنت المطالبة ، والى اليوم لم يستطع ادخار خمسين ليرة ، فكيف يسمح لنفسه بأن يفكر ببيع السرير .. لتقليد صيق من انصار المجتمع .. وتقاليده وبخاصة في شراء الاسرة ؟ ان المجتمع مخلوق ظالم . كيان يفرض واجبات دون أن يتحمل قسطا من المسؤولية . انه فوضوي ، قد جبل من طينة الحقد والكبت ولن ترده الى الطريق السوي سوى عصى غليظة ، وقدم اكثر غلظة وبأسا !!

انه كلما اوغل في بحث هذه المشكلة والتفكير فيها ، تفتقت له مشاكل عديدة لاحصر لها ، بعضها متصل بفن الحياة . وبعضها متصل برضاء المجتمع عن تصرفاته كفرد عامل فيه . وهو لايزال في حيرة ، اتنتهي هموم السرير بايجاده ام أنها ستمتد أكثر فأكثر .. حتى تشمل ضرورة البحث عن انسانة جميلة ترقد عليه ، ليبحث عن واقعه في هذه الروح التي غلفها جسد جميل ؟!

وماذا يصنع بهذا الفراغ اذا امتلأ .. انه الآن يلقي فيه كل همومه .. كل ديونه .. كل تعاسته في دنياه ، دون ان تبين . ولكن اذا احضر هذا السرير الحديدي واغلق هذه النافذة المطلة على حياته البائسة ، فماذا يصنع تجاه الآخرين . تجاه الهموم الآخرى . ان بيته فارغ ، فارغ حقيقة . ان السرير عنوان هذا الفراغ المضاء ليل نهار . كم سيتعذب ! كم سيتألم ! لملء بيته بما تحتويه بيوت الآخرين ؟! المستقبل .. اف من المستقبل . ان المستقبل لا وجود له . ان يومه الذي يعيشه هو مستقبله . يومه هذا ، حيث يمضي تافها حقيرا . ساعاته شهور ودقائقه ليال طويلة حافلة بالبرد والوحشة والسكون المخيف . المستقبل قد لايراه .. قد لايشعر به . انه يتسلل كاللص الى شعره فيتساقط . أو يشيب . ظهره ينحني ، بصره يفتر . عاطفته تتلاشى في حبال الجليد التي يعبرها كل يوم في الطريق الى عمله .. حيث تغشاه الكآبة والقنوط . وسريره هذا اشبه بالقبر .. اشبه بالتابوت الذي يحمل الموتى الى مستقرهم . وسريره هذا أشبه بالقبر .. كرقاص الساعة .. مع الثواني .. مع الدقائق .. ومع الساعات والايام .. يتأرجح .. انه مخيف ، مدمر ، ليس لهول داره حدود .

ليس في بيته شيء . لا غرفة للضيوف . لا غرفة للطعام . لا براد . ولا غسالة . حتى ولا مؤونة تكفيه شهرا . وهذه الحياة التي يحياها الناس من حوله حافلة بكل شيء . بكل شيء مثير .. رائع . ان السرير وحده في الحقيقة لا لزوم له . ان بهرجة النوم على الاسرة عادة تافهة . ان الانسان ابان نومه على السرير لايشعر بشيء . لايشعر حتى بنفسه فماذا يفيد السرير لحياته الفافية ؟. انه يريد ان يبحث عن اشياء تفيده وهو حي. وهو يقظ. وهو ذو شعور واحساس بالحياة والجمال. ذو جوارح تتعذب بالحرمان . بالظلمة . بكل مافي الحياة من مصائب وآلام . أما ان يكون شبه ميت ثم يبحث عن سرير حقير .. سرير حديدي ، سوف يعلوه الصدأ لا محالة ، سيفدو كتلة حديد ، لا فائدة منها بعد عام أو أقل فانه لايريد حدا وسطا .. سوف يطرح مشكلة هذا السرير التي تلهيه عن مشاكله الاخرى .. مشاكل حياته السوداء وحياة الآخرين الاكثر سوادا . ان مشاكل بيته لن تحل ما دامت مشاكل اخرين معلقة غير محلولة . ان مشاكل البيوت لن تحل الا خارجها . سيفتح عينيه على كل شيء . سيصرخ . سيطالب بحقه . سيوقظ النائمين . سيجرد العصاة من اسلحتهم . سيشنق الخرنة بحبال غليظة . سيخنق المضللين بكلتا يديه . سيشرب من دماء الذين ولغوا في دمه ودم الآخرين وهم في المهد يرضعون حليب الامهات . سيكون بطلا !!

حلب — علي بدور
مجاز في الحقوق

لجنة التأليف المدرسي تشكر جميع المعاهد العالية في لبنان وسائر العالم العربي ، مغربة ومشرقة ، التي قررت تدريس كتابها :

التعريف في الادب العربي

تأليف الاستاذ رئيف خوري

وتعلن عن ظهور طبعته الجديدة ، المزيدة والمنقحة جزأين ، ويطلبان من جميع المكتبات

كتاب « التعريف في الادب العربي »

يحلل الاتجاهات الادبية طبقا لاحدث النظريات النقدية واصحها .

ويؤرخ لاعلام الشعراء والكتاب، ويدرس الفنون الادبية بفهم عميق ، وتحليل مقارن .